الحب في فلسفة الدكتور (توفيق الطويل)

إعداد

محمد خليفة عبد الحفيظ عبد المولى

طالب دكتوراه بقسم الفلسفة

بكلية البنات للآداب والعلوم والتربية

جامعة عين شمس

إشراف

أ. د. سلوى محمد مصطفى نصره
أستاذ الفلسفة الإسلامية
ورئيس قسم الفلسفة
كلية البنات للآداب والعلوم والتربية
جامعة عين شمس

د. وفاء سمير علي طلبة
مدرس الفلسفة الإسلامية
كلية البنات للآداب والعلوم والتربية
جامعة عين شمس

المقدمة

في عالمنا العربي المعاصر الذي تتصارع فيه المذاهب والتيارات السياسية والدينية ، وما نجم عن هذا الصراع من انقسام الناس شيعاً وأحزاباً ، تتقاتل وتتناحر ، يكفر بعضها بعضا ويدمر بعضها مدن بعض ، وأصبح أبناء الوطن الواحد أشد بأساً على بعضهم البعض من بأسهم على أعدائهم .. هتكت أعراض واستحلت حرمات .. وساد الظلم والحقد والكراهية .

لذلك أضحت الحاجة للحب ضرورية ضرورة الوجد نفسه ، وأرضية أساسية لبناء المجتمع وعاملاً فعالاً في رقيه .

وتأتي أهمية هذا البحث في إنّه يناقش موضوع الحب في فلسفة الدكتور (توفيق الطويل) الأخلاقية باعتباره فيلسوف الأخلاق في العالم العربي المعاصر .

أما عن الهدف من هذا البحث هو استجلاء الجوانب المضيئة للإنسانية فإذا كان الإنسان هو الكائن الوحيد الحامل للقيمة الأخلاقية فهو أيضاً الوحيد الحامل لقيمة الحب وما يعنينا من قيمة الحب مضامينها الأخلاقية في فلسفة الدكتور (توفيق الطويل) .

ويستخدم الباحث في هذه الدراسة المناهج التالية : " التحليلي والنقدي والمقارن والتاريخي " .

أما عن إشكالية هذا البحث فهي تكمن في الإجابة على السؤال التالي :

إذا كانت الفلسفة هي (محبة الحكمة) فما هي الحكمة من (الحب) في فلسفته ؟

وتتضمن هذه الاشكالية عدة تساؤلات على النحو التالي ما معنى الحب ؟ وإلى أي مدى يأتي الحب في فلسفة الدكتور (توفيق الطويل) مرادفاً لقيمة التسامح ، وما هو موقفه من تصور الفلاسفة للحب ؟ وما هي مكانة الحب في الأديان من منظوره ؟

هذا ما سنحاول الإجابة عليه من تحليلنا لآراء الدكتور (توفيق الطويل) من خلال ثلاثة مباحث وخاتمة على النحو التالي :

المبحث الأول : يبحث في المعنى العام للحب من خلال تعريف الحب لغةً واصطلاحاً ومن ثم بيان معنى الحب في فلسفته .

المبحث الثاني : يبحث في تصور الفلاسفة للحب وعرض نماذج لفلاسفة تناولها الدكتور(توفيق الطويل) بما في ذلك فلاسفة الصوفية من خلال (ابن عربي) نموذجاً .

المبحث الثالث : يبحث في موقف الدكتور (توفيق الطويل) من أهمية الحب في الأديان من خلال عرض نموذجين الدين المسيحي والدين الإسلامي .

المبحث الأول الحب .. المعنى العام

يدور معنى الحب في اللغة حول " (الوداد) ، وعند (الفلاسفة) ميل إلى الأشخاص أو الأشياء العزيزة أو الجذابة أو النافعة "[١] ، والمحبة قيل : أصلها الصفاء ، لأن العرب تقول لصفاء بياض الأسنان ونضارتها : حَبَب الأسنان ، وقيل : مأخوذة الحَباب ، وهو ما يعلو الماء عند المطر الشديد ، فعلى هذا المحبة غليان القلب وثوارنه عند الاهتياج إلى لقاء المحبوب ، وقيل مشتقة من اللزوم والثبات ، ومنها أحب البعير إذا برك فلم يَقُم ، فكأنَّ المحبَّ قد لزم قلْبه محبوبه فلم يُرِم عنها انتقالاً [٢] .

وقيل : " بل هي مأخوذة من الحب جمع حبَّة ، وهو لباب الشيء وخالصه ، وأصله ، فإن الحب أصل النبات والشجر ، وقيل : بل هي مأخوذة من الحب الذي هو إناء واسع ، يوضع فيه الشيء فيمتلئ به بحيث لا يتسع غيره "[٣].

وقيل : " مأخوذة من الخشبات الأربع التي يستقر ما يوضع عليها من جرَّة أو غيرها ، فسمى الحب بذلك لأن المحب يتحمل لأجل محبوبه الأثقال ، كما تتحمل الخشبات ثقل ما يوضع عليها وقيل : بل هي مأخوذة من حبَّة القلب وهي سويداؤه ، ويقال ثمرته ، فسميت المحبة بذلك لوصولها إلى حبَّة القلب وذلك قريب من قولهم : ظهره إذا أصاب ظهره ، ورأسه إذا أصاب رأسه ولكن في هذه الأفعال وصل أثر الفاعل إلى المفعول ، وأما المحبة فالأثر وصل إلى المحب"[٤].

والحب من حيث الاصطلاح " نقيض البغض ، وهو الوداد ، والمحبة ، والميل إلى الشيء السار ، والغرض منه إرضاء الحاجات المادية أو الروحية وهو مترتب على تخيل كمال في الشيء السار أو النافع يفضي إلى انجذاب الإرادة إليه كمحبة العاشق لمعشوقه والوالد لولده والصديق لصديقه والمواطن لوطنه ، والعامل لمهنته ، وقد يكون الحب ناشئاً عن عامل غريزي ، أو عامل كسبي ، أو انفعالي مصحوب بالإرادة أو عامل إرادي مصحوب بالتصور وهو على كل حال لا يخلو من التخيل "[٥] ، وحسب هذا التعريف فالحب وليد الخيال وهو مترتب على النزوع للكمال.

ولعل هذا يذكرنا سريعاً بفلسفة أفلاطون Plato (٤٢٧-٣٤٧ ق.م)الذي أخبر بأن " الحب ينقصه الخير والجمال ويرغب فيهما "[٦] ، ومن هنا فالحب الأفلاطوني توق للكمال وهو سعي

---

(١) مجمع اللغة العربية ، المعجم الوسيط : مكتبة الشروق الدولية ، القاهرة الطبعة الرابعة ٢٠٠٤ ، ص ١٥١.

(٢) ابن القيم ، الحب في الميزان : أو" مذهب روضة المحبين ونزهة المشتاقين " ، مكتبة الإمام الذهبي ، الكويت ، الطبعة الأولى ٢٠٠٦ ، ص ٢٦.

(٣) المرجع السابق ، ص ٢٦.

(٤) المرجع السابق ، ص ٢٦ ، ٢٧.

(٥) د. جميل صليبا ، المعجم الفلسفي : الجزء الأول ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، د.ط ١٩٨٢ ، ص ٤٣٩ ، ٤٤٠.

(٦) أفلاطون ، المأدبة "فلسفة الحب " : تعريب وليم الميرى ، مطبعة الاعتماد ، القاهرة ، الطبعة الأولى ١٩٥٤ ، ص٦٩.

دائب نحو تحقيق الخير والجمال ، والحب الأفلاطوني(المثالي) هو " نوع من الحب الخالد أو أنه نوع خالد من الحب ، أو من الجذب الإلهي ، حيث ينجذب فيه المحب إلى موضوع حبه"[٧] ، وعليه فإن الحب الإلهي حينما يتخذ النمط (الإيروسي)[*] إنما يصبح بمثابة سبيل يقتاد إلى (الله) دون أن يكون هناك بأي حال من الأحوال أي هبوط أو نزول من جانب الله نحو الإنسان ، وليس بدعا أن يكون الإنسان هو المحب دائماً ، وأن يكون الله هو المحبوب دائما فأن (الله) متمتع بأقصى درجات الكمال والسعادة ، في حين أن الإنسان لا يمتلك شيئا منهما ، ومن ثم فإن موضوع حبه هو السعادة[٨] ، وحسب هذا المنظور أن الحب غايته الكمال.

ونحن نحب الكمال لأن هناك كمالات وسجايا ترتع إليها قلوب البشر بالمحبة فإذا لقيتها في شيء جامد أو حي اختصته بهواها ، أي أن المحبوب لا شأن له في الحب إلا بقدر ما يحمل من هذه السجايا ، ولما كانت الصفات الكاملة كثيرة ومتباينة سعى العقل – كعادته - إلى الكشف عن الوحدة المشتركة فيها ، ومن ثم بحث عن الأصل الأول لجميع هذه الكماليات ووجد ضالته في (الله) فالله هو أصل الكمالات وهو تبعاً لقربها منه أو بعدها عنه نحب الملائكة ، فالناس ، فالحيوان وهكذا[٩] ، ومن هنا يمكن القول : بأن قيمة الحب تزيد وتنقص بمقدار ما يحمل الشيء من هذه السجايا والكمالات .

وعلى الرغم من أن كلمة الحب تنطوي أولاً وقبل كل شيء على " دلالة عاطفية أو صبغة وجدانية ، إلا أن الحب في أصله ميل إيجابي أو نزوع عملي يتجلى في تحول الاهتمام من الأنا إلى الأنت " [١٠] ، وقد يخيل إلينا أننا نحب الآخرين لذواتنا ، ولكن الحب الحقيقي هو ذلك الذي يرى في الأخر شخصاً يُحَبّ لذاته ، دون أن يتخذ منه مجرد وسيلة لإشباع أنانيته أو إرضاء ميوله الذاتية ، ومن هنا فإن كلمة الحب لا تكاد تنفصل في معناها عن كلمة الإيثار ، على شرط أن نفهم من الإيثار أنه تحول تام لاهتمامات الشخص من دائرة الذات أو الأنا إلى دائرة الآخر أو الأنت [١١].

وما يعنينا هنا ليس التحول من دائرة الأنا إلى دائرة الأنت بالمعنى الغريزي العاطفي ؛ على الرغم من أن مثل هذا الحب يحتل عند الدكتور (توفيق الطويل) مكاناً بارزاً ورفيعاً من التقدير والاحترام ، ولا هو كحب الأم لولدها لأنه غريزي عاطفي هو الآخر. نتحدث هنا عن الحب بالمعنى الأخلاقي وهو " أن تحب لغيرك ما تحب لنفسك ، وأن تتجاوز العدل لأن العدل يقضي فقط باحترام حقوق الآخرين ، بينما المحبة تدعو إلى بذل الذات وما للذات من أجل خير الآخرين دون أن يكون ذلك البذل مترتباً على حق للآخرين " [١٢] .

---

(٧) د. راوية عبد المنعم ، القيم الجمالية : دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، د.ط ١٩٨٧ ، ص٤٥.

(*) إيروس إله عظيم من أقدم الآلهة وهو إله الحب ، انظر محاورة أفلاطون (المأدبة) ص٣٠ .

(٨) د. زكريا إبراهيم ، مشكلة الحب : مكتبة مصر ، القاهرة د. ط ١٩٨٤ ، ص ١٣٤.

(٩) نجيب محفوظ ، فلسفة الحب : منشورات المجلة الجديدة أكتوبر ١٩٣٤ نقلاً عن مقالات المشاهير http://adeeb-article.blogspot.com

(١٠) د. زكريا إبراهيم ، المشكلة الخلقية : مكتبة مصر ، القاهرة ، الطبعة الأولى ١٩٦٩ ، ص ٢٣٨.

(١١) المرجع السابق ، ص٢٣٨.

(١٢) د.عبد الرحمن بدوي ، الأخلاق النظرية : وكالة المطبوعات ، الكويت الطبعة الثانية ١٩٧٦ ، ص٢٠٠.

نتحدث هنا عن الحب من منظور فيلسوفنا في محيط أوسع ، وبمعنى أعم وأشمل ، ذلك الذي " يجمع بين قلوب يربطها هدف كريم ، يستتب في ظله الأمن ، ويستقر السلام ويقوم التعاون بين الناس بعضهم وبعض ، أفراداً وجماعات وأمماً في كل زمان ومكان "[١٣] .

يتضح من هذا النص أن الحب الذي يعنيه الدكتور (توفيق الطويل) مرادفاً إلى حد كبير للتسامح فلكي تجتمع القلوب ويستقر السلام ويقوم التعاون بين الناس ينبغي توفر التسامح Toleranceالذي هو " سعة صدر تفسح للآخرين أن يعبروا عن آرائهم ومعتقداتهم ولو لم تكن موضع قبول أو تسليم "[١٤] ، وهذا ما يحاول أن يؤكد عليه ويدعو له بالأدلة والبراهين ، وهو الحب والتسامح كنزعة إنسانية بين البشر تفسح للآخرين أن يعبروا عن آرائهم ومعتقداتهم ؛ حتى يسود الوفاق والأخوة والتعاون على كل علاقات الشعوب .

المبحث الثاني موقفه من الحب في تصور الفلاسفة [*]

كان الحب مثار اهتمام الفلاسفة منذ قديم الزمان ، وقد عرفت منه ضروب شتى ، وسيقتصر الباحث الحديث على نماذج من الفلاسفة قدمها الدكتور (توفيق الطويل) :

صور الفلاسفة أحلامهم فيما يرى الدكتور(توفيق الطويل) في(يوتوبيات Utopia)[**] تخيلوها محققة لسعادة أفرادهم ، وكمال حياتهم ، دعوا فيها إلى تطهير النفوس من الحقد والكراهية ، والنفور من الحروب وآفاتها وتوكيد قيم عليا تتمثل في منع الخوف والقلق والجوع والجهل والمرض وطلب الأمن والسلم ، ووراء هذا كله توكيد للحب في نفوس الناس بكل معانيه وأسراره[١٥] ، وهنا يظهر الحب في تصور الفلاسفة -الذين كان للحب مكان في فلسفتهم- مرادفاً لحياة تتسم بالإنسانية وتسمو عن الرذائل إلى آفاق رحبة تراعي بها قيم الخير، تلك القيم التي تشيع السلام والحب بين أفراد المجتمع.

وفي مستهل هذا الموضوع ينبغي أن نشير إلى أن الدكتور (توفيق الطويل) في حديثه عن الحب لم يقف على فلسفة الحب عند (أفلاطون) ، على الرغم من أن تاريخ الفكر الفلسفي في الحضارة اليونانية القديمة يشير (لأفلاطون) باعتباره أكثر الفلاسفة حديثا عن الحب . فقد عني بإبراز فكرته عن الحب من خلال محاورته الشهيرة (المأدبة) ، ولعل مرد ذلك فيما يعتقد الباحث أن الدكتور (توفيق الطويل) في حديثه عن الحب كان (واقعياً) فقد صب اهتمامه لحب الإنسان لأخيه الإنسان بينما الحب الأفلاطوني (مثالياً) هو بمثابة وسيلة لبلوغ المثال أو الكمال .

---

(١٣) د. توفيق الطويل ، الحب كمثل أعلى للإنسان : مجلة العربي ، العدد ٣٢١ ، تصدر عن وزارة الأعلام ، الكويت أغسطس ١٩٨٥ ، ص٦٤.

(١٤) مجمع اللغة العربية ، المعجم الفلسفي : الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية ، القاهرة (بدون طبعة) ١٩٨٣م ، ص ٤٤ .

(*) يناقش الباحث في هذه المبحث موقف الدكتور (توفيق الطويل) من الحب في تصور الفلاسفة من خلال الربط بين فكرة وأخرى بغض النظر عن الفارق الزمني بين فيلسوف وأخر .

(**) كلمة يونانية الأصل ومعناها ما لا يوجد في أي مكان ، ويراد بها كل فكرة لا تتصل بالواقع أو لا يمكن تحقيقها ؛ وقد استعمل هذا المصطلح لأول مرة (توماس مور) وأطلقه على مدينة فاضلة خيالية نظامها ديمقراطي اشتراكي للاستزادة انظر مراد وهبة : المعجم الفلسفي ، ص ٢٥٤.

(١٥) د. توفيق الطويل ، الحب كمثل أعلى للإنسان : ص٦٧.

كذلك نجد أرسطوAristotle(٣٨٤-٣٢٢ ق.م) ، ومع أنه أطال في بحث الصداقة ويشيد بقيام الروابط الاجتماعية[١٦] ، إلا أنه فيما يرى الدكتور (توفيق الطويل) " لم يشير بكلمة إلى حب الإنسانية أو تقديم الخدمات إلى الآخرين ، إنه كان يدرك آلام البشرية ولا يستثار بها ولا يشقى بسببها إلا متى كان ضحاياها من أصدقائه ، وهذا هو مكان الحب عند إنسانه الأعلى"[١٧] .

وقد أحياء هذه الصورة وبالغ فيها حديثاً فريدريك نيتشه Nietzche (١٨٤٤-١٩٠٠ م) فيما سماه بالسوبرمان أو الإنسان الأعلى[*] ، " إذ أنه أعاد جدولة القيم الأخلاقية ، وانتهى إلى العوائق التي تعوق هذا الإنسان الأعلى هي تمجيدنا لقيم بالية يتمسك بها الدهماء وهم الكثرة الساحقة من حب ومسالمة وتعاطف ورحمة وحنان وحلم وصبر ودعه وطاعة وتواضع ومساواة وحرية... وغير هذا مما سماه أخلاق العبيد" [١٨] ، وهذه القيم البالية فيما يرى(نيتشه)أنما نشأت من الكراهية اليهودية كراهية الحقد والعجز " فالحب قد خرج من هذه الكراهية ، منبعثاً عنها وكأنه تاج رأسها ، تاجاً مظفراً تفتح واتسع تحت أشعة شمس النقاء الدافئة ، ولكنه في ظل هذا البهاء والسمو ، مازال يسعى دائماً لنفس أهداف الكراهية... التي يحملها يسوع الناصري بصفته أنجيل المحبة (المخلّص) من غبطة ونصر للفقراء والمرضى"[١٩] ، والحق أن هذا النقد اللاذع الذي وجهه(نيتشه) للقيم الأخلاقية من حب وعطف وشفقه ورحمه وتسامح هو بمثابة إعلان حرب على المسيحية التي يرى بأنها دعت لهذه الأخلاق وأن كان انتصار هذه القيم البالية فيما يرى يعود لليهود.

أما أخلاق السادة عند (نيتشه) والتي يتخلق بها الإنسان الأعلى المنتظر فهي في رأيه إرادة القوة والقتال والبغي والظلم والعسف والقسوة والسيطرة على الضعفاء والسير على جثثهم ، ومن هنا يرى الدكتور (توفيق الطويل) بأن (نيتشه) قد رد الإنسان إلى شريعة الغابة... ولم يفطن إلى أن التحكم في النفس والسيطرة على نزواتها وضبط غرائزها ، وتطهير النفس من الحقد والكراهية ، وترويضها على الحب والحنان والتعاطف والرحمة والدعة... هي شجاعة لا يقوى عليها إلا صفوة الممتازين من الناس[٢٠] ، وبهذا يقلب الدكتور (توفيق الطويل) معادلة (نيتشه) رأساً على عقب فصفوة الناس هم من يعلو بهم الحب عن نزعتهم الأنانية ، ويرتفع بهم على الحقد والكراهية ، وهذه هي قيمة الإنسان الحقيقة .

ويرى مؤرخو الفلسفة فيما يقول عنهم الدكتور (توفيق الطويل): " أن أحسن الناس عند (أرسطو) ، والإنسان الأعلى عن (نيتشه) كانا على تعارض ملحوظ مع الحكيم الرواقي ، فالحكيم

([١٦]) .....، فلسفة الأخلاق نشأتها وتطورها : دار النهضة العربية ، القاهرة الطبعة الرابعة ١٩٧٩ ، ص٩٤ .

([١٧]) .....، الحب كمثل أعلى للإنسان : ص٦٧.

([*]) السوبرمان أو الإنسان الأعلى فكرة قال بها (نيتشة) وهي عنده الغاية من الإنسانية ، ومن أجل هذا كان لابد للقيم الجديدة التي نضعها أن تكون عاملة على ايجاد هذا النوع ، مهيئة لظهوره ، وأول ما يمهد لوضع هذه القيم أن يكون الإنسان حرّاً قد حطم كل القيود ، ولم يعد يؤمن بالقيم التقليدية ، وإنما يحلق تحليقاً حراً ، دون خوف = = ولا وجل ، فوق الناس والأخلاق والقوانين والتقويم التقليدي للأشياء . انظر عبد الرحمن بدوي ، موسوعة الفلسفة : الجزء الثاني ، ص٥١٦ .

([١٨]) د. توفيق الطويل ، الحب كمثل أعلى للإنسان : ص ٦٦ .

([١٩]) فريدريك نيتشه ، أصل الأخلاق وفصلها : ترجمة حسن قبسي ، (بدون تاريخ) ، ص٣١.

([٢٠]) د. توفيق الطويل ، الحب كمثل أعلى للإنسان : ص ٦٦.

الرواقي يعيش في وفاقاً للعقل ولا ينساق أمام عواطفه ووجداناته ، وهو يحتقر الأهواء والميول ، ويشعر بالانفعالات ولكنه لا يأذن لها من فرط قدرته على ضبط نفسه أن تتحكم في سلوكه ، وهو لا يشعر بالحنان والتعاطف الوجداني ولا يهزه موت الأصدقاء والأعزاء ، ولا يحس ألما ولا حزناً ولا خوفاً ولا ندماً. وهكذا أنكرت الرواقية الحب كعاطفة في حياة الإنسان"[٢١].

ومما سبق يتضح إنّ الإفراط في التحكم في الانفعالات ، والقدرة على ضبط النفس ، وملائمة سلوك الإنسان لعقله على حساب الأهواء والتعاطف الوجداني أدى بالرواقية قديماً فيما يرى الدكتور (توفيق الطويل) إلى إنكار الحب كعاطفة في حياة البشر ، فالحكيم الذي يعيش في وفاق مع العقل ليس للأهواء والعواطف سلطان على نفسه.

لكن ثمة وجهة نظر أخرى ترى بأن للحب مكان في فلسفة الرواقية فقد سماه الرواقيون باسم humanitas : أي محبة الجنس البشري بأسره وقد أقاموه على أساس أن كل إنسان غاية في ذاته ، ولهذا يجب أن تحب الأصدقاء والأخوة والأقارب والمواطنين وكل البشرية من أجل ذاتها ، لا لغاية أو منفعة وهكذا تتحول فضيلة العدل عندهم إلى عطف وتعاطف وطيبة وكرم وسخاوة نفس وتسامح ورقة في المعاملة والشعور. ولهذا فإن الحكيم الرواقي هو من يكون صديقاً وفياً ، ثابتاً ، نزيهاً عن الأغراض ، مخلصاً للغير كما هو مخلصاً لنفسه ، هادئاً مع الجاهل صابراً مع الأحمق[٢٢] .

ولعل هذا ما جاء به كانط Kant (1724 - ١٨٠٤) الذي يطالب الناس بأن " يفهموا آيات الكتاب المقدس التي تأمر بحب الأعداء[*]، لأن الحب الذي يصدر عن ميل أو هوى لا يحتاج إلى أمر ، فالحب الذي يستلزمه الواجب الأخلاقي هو الذي يصدر عن نفور طبيعي"[٢٣].

ويرى الدكتور (توفيق الطويل) بأن (كانط) " يعترف بأن الواجب نفسه وجدان أو ميل ، ولكن الإنسان لا يتلقاه عن تأثير خارجي ، فهو يصدر عن تقدير عقلي محض"[٢٤].

من الواضح أن هذا النوع من الحب يقترب إلى حد ما من ما سماه المهاتما غاندي Mahatma Gandhi(+١٩٤٨) حكيم الهنود بمبدأ (الأهمسا Ahimas) [*] ، وبه " أوجب على الإنسان مغالبة أهوائه ونزواته في غير زهو ، والكف عن استخدام العنف شعوراً بقوة النفس لا استخذاء ولا عجزاً عن المقاومة ، وراض النفس على احتمال الظلم الذي يوقعه به الأشرار ، فيستقبل شرهم بالرضا المقرن بالتكفير وطلب الغفران"[٢٥] ، وهكذا كان الحب لب فلسفة

([٢١]) المصدر السابق ، ص٦٥.

([٢٢]) د. عبد الرحمن بدوي ، الأخلاق النظرية : ص٢٠١ .

([*]) يقصد كانط فيما يظهر عظة المسيح لحواريه التي سنقف عندها في حديثنا عن الحب في المسيحية.

([٢٣]) د. توفيق الطويل ، المثل الأعلى بين وأد الشهوة وإشباعها : مجلة علم النفس ، تصدر عن دار المعارف ، القاهرة يونيو ١٩٥٢ ، ص٣٥.

([٢٤]) المصدر السابق ، ص ٣٥ ، ٣٦.

([*]) مبدأ أخلاقي قال به الهندوس ، ويرمي إلى عدم إيذاء أي كائن حي ، وتبعاً له يمتنعون عن أكل لحم الحيوان ويمقتون الحرب ، ومن ظواهره في التفكير الهندي المعاصر دعوة غاندي إلى السلام . انظر مجمع اللغة العربية ، المعجم الفلسفي : ص ٢٩ .

([٢٥]) د. توفيق الطويل ، المثل الأعلى بين وأد الشهوة وإشباعها : ص٣٤.

(المهاتما غاندي) ونهج نهجه مئات الملايين من الهنود ، ويكمن في إيمانه بمقاومة السيئة بالحسنى ، ومحاربة الحقد والظلم والكراهية بالحب.

ويعتقد الباحث أن هذا النوع من المقاومة التي انتهى إليها (غاندي) ينقصها التوازن والعطاء والمسؤولية المتبادلة لأنها تقتضي مقاومة السيئة بالحسنى ، ومحاربة الحقد والظلم والكراهية بالحب ، لذلك نذهب مع الرأي الذي يصف مثل هذا النوع من المقاومة ، بالمقاومة السلبية.

لكن (غاندي) فيما لاحظ الدكتور (توفيق الطويل) لا يستريح حين يوصف جهاده بالمقاومة السلبية ، إذ كيف تكون سلبية وهى لا تتحقق إلا لمن وفق في مجاهدة ميوله وغرائزه ، وضبط دوافعه ونوازعه ، والسيطرة على أهوائه ونزواته [٢٦] ، وهذا هو الحب فيما يرى فيلسوفنا ، يطهر النفوس من الدنايا والضغائن والأحقاد ، ويصل بين الناس ما أنقطع ويقيم بينهم التعاطف الوجداني ويربطهم بالتعاون الذي يتكفل بتحقيق مصالحهم المشتركة ، وحسبه أن يكفل للعزل من السلاح أن يدحروا أعظم إمبراطورية في التاريخ الحديث ، وهي الإمبراطورية البريطانية التي كانت عند استعمارها للهند لا تغيب الشمس عن أملاكها ! وقد كفل لها أسطولها البحري وإمكانيتها الحربية أن تفرض سيادتها على الدنيا بأسرها ، فتصدى (غاندي) لمجابهتها ومعه ملايين الهنود العزل من السلاح ، إلا من الإيمان بمبدئه في (الاهمسا) أي الكف عن الأذى ، ومقاومة السيئة بالحسنى ، ومحاربة الحقد والظلم والكراهية بالحب الذي يملأ شعاب النفس ، ويدفع صاحبه إلى الصيام والصلاة طلباً للمغفرة لمن أساء وبغى وظلم[٢٧] .

ومن ثم يبدو أن مقاومة السيئة بالحسنة في عرف الدكتور(توفيق الطويل) تتجاوز حدود المقاومة السلبية فإذا تصورنا بأنها دليل ضعف أو جبن ، فقد تبين بأنها دليل قوة تنبع من الفضيلة وليس القهر ، وتنشأ من الحقيقة وليس الجبروت ، وعليه فأن مقاومة السيئة بالسيئة لا يولد إلا الكراهية والانتقام كنتيجة طبيعية لسلسة لا نهائية من العنف والعنف المتبادل.

ومما تجدر الإشارة إليه ثمة صور أخر من صور الحب في تصور الفلاسفة أشار إليها الدكتور(توفيق الطويل) تلك التي ظهرت عند فيلسوف الصوفية محي الدين ابن عربي (١١٦٥-١٢٤٠ م) الذي تفرع عن مذهبه في (وحدة الوجود) مذهبه في (الحب الإلهي) ، ونشأ موقفه من مقومات الأخلاق ، فالأعيان مجرد صورة يتجلى فيها الله ، وكل جميل مجلى للجمال الإلهي المطلق ، وكل محبوب مجلى للمحبوب الأعظم[٢٨] ، فالعالم " جمال الله ، فهو تعالى الجميل المحب للجمال فأوجد الله العالم في غاية الجمال والكمال خلقاً وإبداعاً ، فإنه تعالى يحب الجمال ، ومن ثم لا جميل إلا هو ، فأحب نفسه ، ثم أحب أن يرى نفسه ، في غيره فخلق العالم على صورته ، فالعالم كله جميل ، وهو سبحانه يحب الجمال ، ومن هنا تعلقت الأسماء الإلهية ،

([٢٦]) د. توفيق الطويل ، الحب كمثل أعلى للإنسان : ص٦٥.

([٢٧]) المصدر السابق : ص٦٥.

([٢٨]) د.توفيق الطويل ، فلسفة الأخلاق الصوفية عند ابن عربي : بحث منشور في الكتاب التذكاري محي الدين بن عربي في الذكرى السنوية الثامنة لميلاده : دار الكتاب العربي القاهرة د ، ط ١٩٦٩ ، ص١٦٤.

فتسمى تعالى بالودود ، فهو تعالى ثابت المحبة من كونها وداً "[٢٩] ، فالحب عند (ابن عربي) إذن صفه إلهية ، وصف الله بها نفسه ، وتسمى بالودود أي المحب.

والحب إن تمكن من قلب صاحبه مثل له محبوبه حتى لا يرى إلا صورته ، ولا يسمع إلا حديثه ، وعندئذ لا يملك السالك المحب إلا أن يعمل بتعاليم محبوبه ، حباً له وكسباً لمرضاته ، لا خوفاً من ناره ولا طمعاً في نعيمه ، وهذا هو الحب الروحاني ويقول الدكتور (توفيق الطويل): " غايته أن يصير ذات المحبوب عين ذات المحب ، وذات المحب عين ذات المحبوب ، وفي هذا تقوم السعادة العظمى التي يستهدفها السالك إلى الله "[٣٠] ، وهكذا مضى فيلسوف الصوفية في طريق الحب إلى أقصى آماده فجعل حب السالك غاية طريقه ، ونهاية مطافه ، وعلى السالك أن لا ينطوي لغيره إلا على الحب صافياً لكي تصفو نفسه ويرتفع عنها حجاب الحس[٣١] .

وهنا يظهر الحب الحقيقي يستند إلى الحب الإلهي لأن الله سبحانه وتعالى أحب ووصف نفسه بالمحب (الودود) ومن ذلك فالحب من صفات الله التي ينبغي التخلق بها.

وهكذا تباينت آراء الفلاسفة التي قدمها الدكتور (توفيق الطويل) في تحليل الحب فلسفياً ، وفي كل هذه الآراء قد نجد من الحقيقة جانباً ، ولعل الأقرب إلى الصواب رأي الفلاسفة الذين رأوا في الحب دعوة إلى تطهير النفوس من الحقد والكراهية ، والنفور من الحروب وآفاتها وتوكيد قيم عليا تتمثل في منع الخوف والقلق والجوع والجهل والمرض وطلب الأمن والسلم ، ووراء هذا كله توكيد للحب في نفوس الناس بكل معانيه وأسراره ، على الرغم من أن الدكتور (توفيق الطويل) لم يقدم نموذجاً .

المبحث الثالث الأديان في فلسفته كرسالة حب وتسامح :

تؤكد الأديان جميعها على الحب " إذ لا يمكن أن يتأسس دين على غير الحب ، لأن الدين ينشد السعادة ، والحب ، بجميع مركباته الذهنية والعاطفية ، هو أعظم الأسس للسعادة "[٣٢].

ولأنه لا يمكن أن يتأسس دين على غير الحب فقد كان الأصل في الأديان فيما يرى الدكتور (توفيق الطويل) " أنها رسالة الحب إلى النزاعين للحقد والبغضاء ، ودعوة السلام إلى التواقين للقتال الراغبين في إراقة الدماء ، ونداء الرحمة والتسامح إلى المشائين بالقسوة والانتقام"[٣٣] ، إلى آخر ما سنعرفه من موقفه من براءة الأديان من تبعات الاضطهاد.

([٢٩]) محمود محمود الغراب ، الحب والمحبة الإلهية (من كلام الشيخ الأكبر محي الدين ابن عربي) : مطبعة الكتاب العربي ، دمشق الطبعة الثانية ١٩٩٢ ، ص ١٣ ، ١٤.

([٣٠]) د. توفيق الطويل ، فلسفة الأخلاق الصوفية عند ابن عربي : ص١٦٤.

([٣١]) د. توفيق الطويل ، الحب كمثل أعلى للإنسان : ص٦٥.

([٣٢]) سلامة موسى ، فن الحب والحياة : سلامة موسى للنشر والتوزيع ، القاهرة الطبعة الأولى ١٩٤٧ ، ص٩٢ .

([٣٣]) د. توفيق الطويل ، قصة الاضطهاد الديني في المسيحية والإسلام : دار الزهراء للإعلام العربي ، القاهرة الطبعة الأولى ١٩٩١ ، ص٢٦.

أ- الحب والتسامح في المسيحية :

في المسيحية المحبة هي ركن الزاوية في الأخلاق والإيمان " فالله محبة ليس فقط لأنه يحبّنا ، ولكن لأن جوهره كله محبة ، والمحبة كلها إلهية ، والله محبة لأنه لا يوجد (مطلق) آخر غير هذا الفعل للخير ، إنه خير محب " [٣٤] .

إن الفلسفة القديمة فيما يرى الدكتور(توفيق الطويل) " لم تغفل الحديث عن محبة الإنسان لأخيه الإنسان ، إلا أن الدعوة إلى محبة البشرية لم تكن واجباً مفروضاً على الإنسان ، ولكن هذه المحبة قد تحولت بفضل المسيحية فأصبحت واجباً واضحاً يلزم به كل إنسان ، إذ نصت المسيحية على أن الناس جميعاً أبناء الله ؛ ومن ثم كانوا إخوة "[٣٥] ، إذ يتوقف على الحب تنفيذ القانون بل تتوقف قيمة الواجب المسيحي الخلقية كلها أي تتوقف على حب الله قبل كل شيء ، ذلك الحب الذي لابد أن يكون قد نشأ كاملاً عن الإيمان المسيحي ؛ ثم حب جميع الناس باعتبارهم موضوعاً للحب الإلهي ومساهمين في الإنسانية التي شرفها التجسد ، ومحبة البشر المستنتجة على هذا النحو سواء أتصورنها ممتزجة بالمحبة الإنسانية الطبيعية ومؤيدة بها أم تصورنها مستغرقة لهذه المحبة ومغيرة لها ، فإنها تميز الروح الذي به يتم قيام المسيحيين بالواجب الاجتماعي ؛ أما عبادة الله عبادة يحدوها الحب باعتبارها الاتجاه الأساسي للعقل فإن هذا ما يجب اعتناقه طوال حياة الرجل المسيحي[٣٦].

وإذا سلمنا بأن لكل فرد الحق في التوجه نحو الزهو بصلاح إيمانه ، لكنه إذا تجرد من المحبة والتواضع وإرادة الخير للبشرية بمن فيهم من غير المسحيين فإنه في هذه الحالة ، لا يمكن أن يكون مسيحياً حقاً[٣٧] ، لأن الحب والتسامح بين أولئك الذين يعتقدون عقائد مختلفة في أمور الدين يتسق تماماً مع العهد الجديد الذي أتى به السيد المسيح ، كما يتمشى مع مقتضيات العقل الإنساني الحق ، حتى إنه لأمر غريب عند الناس أن يكون المرء أعمى إلى الدرجة التي لا يرى فيها ضرورة التسامح ومزاياه في ضوء ساطع كهذا[٣٨].

وبهذا الحب بلغت المسيحية قمماً سامية من الروحية لذلك يؤكد الدكتور (توفيق الطويل) في أكثر من موضع على إنصاف المسيحية[*] ، السمحاء وإنّها بريئة من تبعات الدم الذي أريق باسمها ، والنفوس التي أزهقت من أجلها ، وما أجل المسيح - عليه السلام - في خطبته على الجبل حين قال لحوارييه مستناً شرعية الحب الذي لا يعرف الانتقام ، والسلام الذي لا يقر الثأر ولا يبيح العدوان : " سمعتم أنه قيل عين بعين وسن بسن ، وأما أنا فأقول لكم : لا تقاوموا الشر ، بل من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر أيضاً ، سمعتم أنه قيل تحب قريبك وتبغض

([٣٤]) د. عبد الرحمن بدوي ، الأخلاق النظرية : ص ٢٠٣ .

([٣٥]) د. توفيق الطويل ، فلسفة الأخلاق نشأتها وتطورها : ص١٥٣.

([٣٦]) هنرى سدجويك ، المجمل في تاريخ علم الأخلاق : (الجزء الأول) ترجمة توفيق الطويل ، عبد الحميد حمدي ، دار نشر الثقافة ، الإسكندرية الطبعة الأولى ١٩٤٩ ، ص٢١٥.

([٣٧]) جون لوك ، رسالة في التسامح : ترجمة منى أبوسنه ، المجلس الأعلى للثقافة ، الإسكندرية الطبعة الأولى ١٩٩٧ ، ص١٩.

([٣٨]) جون لوك ، رسالة في التسامح : ص٢٣.

([*]) انظر قصة الاضطهاد الديني بين المسحية والإسلام ، ص ١٧٢ وما بعدها ، انظر الحب كمثل أعلى للإنسان ، ص٦٦ ، وقصة النزاع بين الدين والفلسفة ، ص ٢٧٥ وما بعدها.

عدوك ، وأما أنا فأقول لكم : أحبوا أعداءكم وباركوا لاعنيكم وأحسنوا إلى مبغضيكم وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم لكي تكونوا أبناء أبيكم الذي في السموات"[٣٩].

هذه هي خطبة المسيح لحوارية على الجبل وبها يبرهن الدكتور (توفيق الطويل) على سماحة المسيحية وبراءتها من تبعات الاضطهاد الآثم ، ومن يرى أن مرد الفظائع التي تنسب إلى المسيحية زوراً ، إلى تزمت الجهال من أتباعها في الغرب ، أما المستنيرون من ذوي الصدور الرحبة من أهلها في الشرق والغرب على السواء ، فقد ملأ الإيمان السمح صدورهم ، وشاع نوره في نفوسهم فبرئت ساحتها من آثار التعصب البغيض وكانوا عنوان الحب الذي نزلت المسيحية مبشرة به[٤٠].

ويعتقد الباحث على الرغم من هذه القيمة الروحية التسامحية التي تنادي بها المسيحية ، والتي أيدها إلى حد ما الدكتور (توفيق الطويل) إلا أن الأمر يحتاج إلى مجاهدة نفس قد لا تتوفر عند الكثيرين فإن تحب الذين يحبونك وتكره الذين يكرهونك هذا أمر طبيعي وفق مبدأ المعاملة بالمثل الذي ينظم علاقاتنا الاجتماعية ، أما محبة الذين يكرهونك يمثل انحراف عن الطبيعة البشرية التي تقتضي أن تحب من يحبك وتكره من يكرهك.

ب- الحب والتسامح في الإسلام :

يرى مؤرخو المسيحية أن خطبة المسيح للحواريين قد ارتفعت بالمسيحية إلى أعلى قمم شاهقة من الروحية ، وأن الحب فيها قد بدأ أعلى القيم وأسماها [٤١] . فماذا كان الحال في الإسلام؟

ليس من شك في أن الإسلام دين محبة وتسامح ، ومحبة الله سبحانه هي " أصل دين الإسلام ، الذي يدور عليه قطب رحاها ، وبكمالها يكمل الإيمان ، وبنقصها ينقص توحيد الإنسان ، وهذه المحبة واجبة بإجماع المسلمين"[٤٢] ، وهذا ما يؤكده الدكتور(توفيق الطويل) ويظهر ذلك جلياً عندما يقول : " من أسماء الله الحسنى في الإسلام : الودود بمعنى المحب"[٤٣].

وقد ورد في آيات الكتاب وأحاديث النبي ρ ما يدعو المؤمن إلى تطهير قلبه من الحقد والكراهية ، وبث الحب في شعاب نفسه قال تعالى : { وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ }[٤٤] ، وفي هذا دليل على أثر العفو والصفح عن الإساءة ، وهذا هو المجتمع الذي ينشده الإسلام مجتمع حب وتسامح ، ومودة ورحمة ، وخير وفضل وإحسان.

وفي الحديث النبوي عن أبي هريرة ، قال: قال ρ :{ إِنّ اللهَ يَقُول يَوْمَ الْقِيَامَةِ : أَيْنَ الْمُتَحَابّونَ بِجَلَالِي الْيَوْمَ أُظِلّهُمْ فِي ظِلّي ، يَوْمَ لَا ظِلّ إِلّا ظِلّي }[٤٥] .

وورد في الحديث النبوي أيضاً عن أنس عن النبي ρ قال : { لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ }[٤٦] ، ومثل هذا في الإسلام أكثر من أن يحصى وبه يؤكد الدكتور (توفيق

([٣٩]) د.توفيق الطويل ، قصة النزاع بين الدين والفلسفة : ص٢٧٥، ٢٧٦. نقلاً عن العهد الجديد الإصحاح الخامس وما بعده من أنجيل متى.

([٤٠]) .....، قصة الاضطهاد الديني في المسيحية والإسلام : ص٢٧.

([٤١]) .....، الحب كمثل أعلى للإنسان : ص٦٦.

([٤٢]) محمد صالح المنجد ، المحبة : مجموعة زاد ، جدة ، الطبعة الأولى ٢٠٠٩ ، ص ١٠.

([٤٣]) د. توفيق الطويل ، الحب كمثل أعلى للإنسان : ص٦٦.

([٤٤]) سورة فصلت ، الآية ٣٤.

([٤٥]) صحيح مسلم ، باب في فضل الحب في الله: دار طيبة (بدون تاريخ) ، ص١١٩٤ .

الطويل) على أن الإسلام دعا إلى الحب والتسامح بين الناس ، وإن الحب قيمة عليا في رسالة الإسلام وهدفاً سامياً من أهدافه .

ومن الواضح تأثر الدكتور (توفيق الطويل) بهذه القيم والمبادئ الإسلامية تأثراً وافرا فإننا نجد في أقوله دعوة إلى التسامح ، دعوة إلى نبذ الكراهية ، دعوة إلى الحب ، دعوة إلى نبذ الصراعات والأحقاد وطرحها جانباً ، ولقد قال الدكتور (توفيق الطويل) فيما يقول عنه الدكتور (عاطف العراقي) أثناء حوار معه نشر بجريدة الأهرام في مايو عام ١٩٨٠ م: " إن مسيرة التاريخ الإنساني حافلة بنماذج الكفاح البطولي التي ما كان لها من سلاح حقيقي سوى الحب ، وفي كل نزعة الحب يتجه التشريع الدولي والأممي إلى إشاعة المساواة في الحقوق والواجبات المتبادلة بين الأفراد من ناحية ، وبين الأمم من ناحية أخرى إن الحب يعلو بنا فوق نزعاتنا البهيمية ويسمو على صغائر الكراهية والحقد ويجعلنا نحاول أن نحاكي الله في صفاته الحسنى على قدر ما تسمح طبيعتنا البشرية "[٤٧] ، ومن هنا يتضح أن الحب في فلسفة (توفيق الطويل) يرتفع بالإنسان فوق نزعاته البهيمية ويرتقي به إلي مرتبة أعلى يحاكي فيها الله في صفاته الحسنى من ود ، ورحمة ، وسلام دون أن يقطع صلته بالواقع على قدر الطاقة البشرية .

والجدير بالذكر أن دعوة الإسلام للحب والتسامح لا يعني أن يصبر الإنسان على ضيم فيما وضح الدكتور(توفيق الطويل) ، أو يستسلم لذل أو يستكين لظلم ، بل يأمر صراحةً " بأن يرد العدوان بمثله ، وإن كره الله أن يبدأ المسلم بالعدوان "[٤٨]: { فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُم }[٤٩] ، ومن هنا ، وكما أن الإسلام يأمرنا بالحب والتسامح والإحسان قولاً وعملاً بمن لم يعتدي علينا ، أيضاً يأمرنا بعدم الاستكانة والاستسلام ، ورد العدوان بمثله ، لأنه قد يكون في ذلك انحراف عن الطبيعة البشرية ، وإهدار للكرامة الإنسانية.

والحق أن الدكتور (توفيق الطويل) كان حريصاً كل الحرص على تأكيد بأن من أخص خصائص الدين الإسلامي دعوته إلى الحب والتسامح ، وتنفيره من الحقد والانتقام وتأييداً لرأيه يستشهد بآيات صريحة تغري بالسماحة وتدعوا بالمحبة ، وتنفر من الحقد ، وتستهجن الكراهية. قال تعالى : {إِنَّ اَلذِينَ ءَامَنُواْ وَالذِينَ هَادُواْ وَالنَّصَارى وَالصَّابئين مَن ءَامَنَ بِاللَّهِ وَاليَومِ اِلأَخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُم أَجُرهُم عِندَ رَبّهِم وَلَا خَوف عَلَيهِم وَلَا هُم يَحزَنُونَ }[٥٠] ، وبهذا أقر الإسلام التسامح في أرحب آفاقه ، فمن آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فله أجره عند ربه ، من غير

([٤٦]) صحيح البخاري ، باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه : دار ابن كثير دمشق- بيروت ، الطبعة الأولى ٢٠٠٢، ص ١٣، ١٤.

([٤٧]) د.عاطف العراقي ، توفيق الطويل وحياته الفكرية ، في كتاب ، " الدكتور توفيق الطويل مفكراً عربياً ورائداً للفلسفة الخلقية ـ بحوث عنه ودراسات مهداة إليه "، المجلس الأعلى للثقافة القاهرة ، د.ط ١٩٩٥ ، ص ص ٣٢ ، ٣٣ .

([٤٨]) د. توفيق الطويل ، الحب كمثل أعلى للإنسان : ص ٦٧.

([٤٩]) سورة البقرة الآية ١٩٣.

([٥٠]) سورة البقرة الآية ٦١.

تفرقه بين المؤمنين وغيرهم من اليهود والنصارى والصابئين[٥١] ، ومن هنا فإن من يدين بالإسلام الصحيح لا يمكن إلا أن تصفو نفسه ، ويفيض قلبه بالحب والتسامح والعفو والرحمة .

ويؤكد الدكتور (توفيق الطويل) على أن " من دلالات شيوع الحب والتسامح في الإسلام وقوفه وراء اليقظة العلمية كدين إنساني سمح يدعوا إلى النظر المتحرر ، ويوصي بتوخي العدالة والتسامح حتى في معاملة من لا يدينون به ، متى دفعوا الجزية تسنى لهم أن يبقوا في دولة الإسلام على دينهم ، أحراراً في تفكيرهم ومعتقداتهم ، آمنين على أنفسهم وما ملكوا ، فلم يكن بدعاً أن يقيم في ظله أهل العلم من المسيحيين واليهود والصابئة ومن إليهم في حرية وأمن وتوقير"[٥٢].

وفي ظل هذه السماحة عاشت تقاليد الإسلام ، منذ أن وعد رسول ρ اليهود وعاهدهم وأقرهم على أموالهم وحريتهم في الرأي والعقيدة ، ومنذ أن كتب عمر بن الخطاب – الذي أتهم بالتشدد مع الذميين[*]- وثيقته التي أمن فيها المسيحيين من أهل إيليا ، وكفل لهم حرية العقيدة والإقامة في نص الصلح الذي عقده مع (صفر نيوس) أسقف بيت المقدس[٥٣] ، وفي كنف هذا التسامح كان (عمر بن الخطاب) τ مع قبط مصر أقرهم وأمنهم على أموالهم وأنفسهم وعقائدهم ، فلا يضار أحد بسبب دينه[٥٤] ، وهكذا عاش في ظل الإسلام حملة العلم من الذميين وغيرهم ، يهوداً كانوا أو مسحيين أو صابئة أو غير هؤلاء جميعاً في رعاية المسلمين مكفولي الأمن والأمان.

ومكن الإسلام لمبدأ التسامح ، ومن ثم فالقول بأن الإسلام قد انتشر بالسيف ينطوي على بهتان عظيم فيما يرى الدكتور (توفيق الطويل) " فما دعا الإسلام للقتال إلا رداً لفتنة المؤمنين عن دينهم ، لأن الفتنة أكبر من القتل "[٥٥] ، وهذه الفكرة يجدر بنا أن نوضحها فإن دعوة الإسلام لم تقم على السيف وإنما قامت على الإقناع " فحينما كان الرسولρ في مكة ، وحينما بدأ بدعوته وحيداً لا سلاح معه ولا مال ، دخلها مجموعة من عظماء الرجال من أمثال أبي بكر وعثمان وسعد بن أبي وقاص وطلحه والزبير ثم عمر بن الخطاب وحمزة ابن عبد المطلب"[٥٦] ، فهل يمكن أن يقال إن كل هؤلاء دخلوا الإسلام بحد السيف ؟

وكثيراً ما انتشر الإسلام بالتسرب السلمي البطيء من قوم إلى قوم ، فكان إذا ما اعتنقته الارستقراطية وهى هدف الدعاة الأول تبعتها بقية القبيلة ، وقد يسر انتشار الإسلام أمر أخر هو إنه دين فطرة بطبيعته ، سهل التناول لا لبس فيه ولا تعقيد في مبادئه سهل التكييف والتطبيق في مختلف الظروف ووسائل الانتساب أيسر وأيسر ، إذ لا يطلب من الشخص لإعلان إسلامه سوى

---

(٥١) د. توفيق الطويل ، قصة الاضطهاد الديني في المسيحية والإسلام : ص١٢ ، ١٣.

(٥٢) .....، العرب والعلم في عصر الإسلام الذهبي : بحث منشور في كتاب قضايا في رحاب الفلسفة والعلم ، قضايا في رحاب الفلسفة والعلم : دار النهضة العربية ، القاهرة د . ط ١٩٨٦ ، ص٣٠٨.

(*) لمعرفة المزيد عن سماحة الفاروق انظر المصدر السابق ص ١٦٢ وما بعدها.

(٥٣) المصدر السابق ، ص ٣٠٩.

(٥٤) د. توفيق الطويل ، قصة الاضطهاد الديني في المسيحية والإسلام : ص١٦٣.

(٥٥) د. توفيق الطويل ، العرب والعلم في عصر الإسلام الذهبي : ص٣٠٩

(٥٦) د. أحمد شلبي ، مقارنة الأديان " الإسلام " : مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة الطبعة الثامنة ١٩٨٩، ص١٩٨.

النطق بالشهادتين فيصبح بذلك في أعداد المسلمين[٥٧] ، ومن ثم ليس القتل في طبيعة الإسلام بل في طبيعته العفو والمسامحة[٥٨]: {خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ}[٥٩].

والواقع أن دعوة الإسلام لم تقم على القسر أو السيف ، وإذا كان ثمة سيف فيما يرى الدكتور (توفيق الطويل) فهو حين دس الحكام الدنيويون أنوفهم في مسائل علمية أو دينية ، وفرضوا رأيهم على مخالفيهم بحد السيف...! ويسوق مثالاً واحداً على ذلك وهو محنة أهل السنة وفي مقدمتهم الأمام أحمد بن حنبل على يد المأمون والمعتصم والواثق في مشكلة خلق القرآن. تعرض أهل السنة للعذاب ، بسبب إصرارهم على القول بأن القرآن قديم قدم الله ، ومرد المحنة التي عايشوها أربعة عشر شهراً إلى أن المأمون قد اقتنع برأي المعتزلة في أن القرآن مخلوق وليس قديماً ، وأن القول بقدمه شبه شرك ، والقائل بالشرك وجب رده ، فإن عاند وجب قتله..! واعتقد المأمون أنه مسئول أمام الله عن عقيدة رعاياه ، فتدخلت الدولة بسلطانها وهيلمانها وولاتها وجنودها ، في حمل الفقهاء على الاعتقاد بأن القرآن مخلوق ، ولولا تدخل الدولة لظل الجدال بين المعتزلة وأهل السنة مجرد مقارعة حجة بحجة ، وبرهان ببرهان ، وما كان يمكن أن يتحول الجدل إلى تعذيب أو تنكيل بأحد ، طالما كان الفريقان المختصمان مجردين من كل سلطة دنيوية [٦٠] ، وبهذا المثال الصريح الواضح يؤكد الدكتور (توفيق الطويل) على أن التنكيل الذي تعرض له أهل السنة في الإسلام كان مرده انحياز السلطة الحاكمة لرأي على حساب آخر ، وفرضه بالسيف والقسر والإجبار ، والواقع أن ساحة الدين الإسلامي السمح بريئة من آثامه.

ومن هذا نعلم أن سرعة انتشار الدين الإسلامي ، وإقبال الناس على الاعتقاد به من كل ملة ، إنما لسهولة تعقله ، ويسر أحكامه ، وعدالة شريعته ، وبالجملة ، لأن فِطَرة البشر تطلب ديناً ، وترتاد منه ما هو أمسُّ بمصالحها ، وأقرب إلى قلوبها ومشاعرها ، وأدعى إلى الطمأنينة في الدنيا والآخرة ، ودين هذا شأنه يجد إلى القلوب منفذاً وإلى العقول مخلصاً ، بدون الحاجة إلى دعاة ينفقون الأموال الكثيرة والأوقات الطويلة ويستكثرون من الوسائل ونصب الحبائل لإسقاط النفوس فيه ، هذا كان حال الإسلام في سذاجته الأولى وطهارته التي أنشأه الله عليها ، ولا يزال على جانب عظيم منها في بعض أطراف الأرض إلى اليوم[٦١].

ومن هنا يتفق الباحث مع الدكتور(توفيق الطويل) في تفرقته " بين الدين في ذاته وبين الفكر الديني ، فالاضطهاد الديني لرجال الفكر والعلم كان مرده دائماً إلى التأويل المتعسف للنصوص الدينية وليس إلى الدين السمح وبالتالي لا ينبغي تحميل الدين مسؤولية الاضطهاد

---

(٥٧) المرجع السابق : ص ٢٠٣.

(٥٨) محمد عبده ، الإسلام بين العلم والمدنية : مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة ، القاهرة د. ط ٢٠١٢ ، ص ٨٤ .

(٥٩) سورة الأعراف الآية ١٩٩.

(٦٠) د. توفيق الطويل ، الحضارة الإسلامية والحضارة الأوربية " دراسة مقارنة "، مكتبة التراث الإسلامي ، القاهرة د.ط ٢٠٠٧ ، ص١٣٢ . وأيضاً د. توفيق الطويل قصة الاضطهاد الديني : ص ١٥ ، ١٦.

(٦١) محمد عبده ، الأعمال الكاملة : " مرجع سابق " ، ص ٤٧٥.

الديني على النصوص الدينية البريئة من كل شبهة قد يحاول البعض لغرض في نفسه أن يلحقها بها "[٦٢].

كانت هذه رؤية الدكتور (توفيق الطويل) للحب والتسامح في الإسلام ، ولما كان صاحب هذه الرؤية " رقيق الطباع سمح الخلق وديع الأخلاق"[٦٣] ، فقد كانت نزعة الحب الأصيلة عنده لا تعد مجرد دعوة نظرية من جانبه بل قد تحولت لديه إلى جانب تطبيقي وأسلوب في الحياة ، تحولت إلى رعاية وعناية بزملائه وطلابه[٦٤] ، ومما سبق تتضح الحكمة من الحب في فلسفة الدكتور (توفيق الطويل) فمن رحم الحب تولد قيمة الصدق ، فقد كان صادقاً من حيث إنه ينقل الذات من الميدان النظري إلى الميدان العملي ، وهذا ما تؤكده حياته الواقعية التي جاءت انعكاساً لأفكاره النظرية ما استطاع إلى ذلك سبيلا .

الخاتمة

(نتائج البحث)

بعد مناقشة مضامين (الحب) في فلسفة الدكتور (توفيق الطويل) الأخلاقية يمكن إجمال النتائج التي انتهى إليها هذا البحث في النقاط الآتية :

١) أن الحب في فلسفة الدكتور(توفيق الطويل) نزعة إنسانية تجمع بين قلوب يربطها هدف كريم ، يستتب في ظله الأمن ، ويستقر السلام ويقوم التعاون بين الناس بعضهم وبعض ، أفراداً وجماعات وأمماً في كل زمان ومكان.
٢) الحب في فلسفته سعة صدر تفسح للآخرين أن يعبروا عن آرائهم ومعتقداتهم ومن ثم يعد مرادفاً للتسامح .
٣) الحب في فلسفته من طبيعة الأديان وليس فيها ما يدعوا إلى الاضطهاد ولا إلى محاربة الجديد ولا إلى مناهضة حرية الرأي .
٤) الأصل في الأديان وفق منظوره رسالة حب إلى النزاعين للحقد والبغضاء ، ودعوة السلام إلى التواقين للقتال الراغبين في إراقة الدماء ، ونداء الرحمة والتسامح إلى المشائين بالقسوة والانتقام .
٥) الاضطهاد الديني لرجال الفكر والعلم كان مرده دائماً إلى التأويل المتعسف للنصوص الدينية ، وليس إلى الدين السمح ، وبالتالي فأنه لا ينبغي تحميل مسؤولية الاضطهاد الديني على النصوص الدينية البريئة من كل شبهة .
٦) إنّ الحب في فلسفته يعلو بنا فوق نزعاتنا البهيمية ويسمو على صغائر الكراهية والحقد ويجعلنا نحاول أن نحاكي الله في صفاته الحسنى على قدر ما تسمح طبيعتنا البشرية .

([٦٢]) د. مجدي الجزيري ، نزعة التجديد والتنوير عند توفيق الطويل : بحث منشور في كتاب الدكتور توفيق الطويل مفكراً عربياً ورائداً للفلسفة الخلقية ـ بحوث عنه ودراسات مهداة إليه "، ص ٦٧.

([٦٣]) د. حسن حنفي ، من المثالية المعتدلة إلى الواقعية الجذرية (تحية إلى وحوار مع توفيق الطويل) : ، بحث منشور في الكتاب التذكاري للمرحوم الأستاذ الدكتور توفيق الطويل ، كلية الآداب جامعة القاهرة ، د.ط ١٩٩٥ ، ص ٧٤.

([٦٤]) د. عاطف العراقي ، توفيق الطويل وحياته الفكرية : ص ٣٣.